غرفة الرئيس

ريكاردو روميرو

ترجمة: محمد الفولي

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

غرفة الرئيس

رواية

ريكاردو روميرو

ترجمة محمد الفولي

الكاتب: ريكاردو روميرو
عنوان الكتاب: غرفة الرئيس
ترجمة: محمد الفولي
X
العنوان باللغة الأصلية: la habitación del presidente
الكاتب: Ricardo Romero
X
تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقّامي
X
ر.د.م.ك: 978-9921-775-30-3
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022
3000 نسخة
X
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
X
La Habitación del Presidente
@ Ricardo Romero
@ Etern Cadencia

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH

غرفة الرئيس

إلى بيكتوريا، من أجل عيد ميلادها

هذه القصة، وكل القصص الأخرى.

لِنقُل الأمر بصورة أخرى:

أليس من الممكن أن يكون السر

مكشوفًا أمامنا

لأننا أصلًا بتنا نعرف ماهيته؟

ستيفن ميلهاوزر، «إخوة الليل».

غرفة الرئيس

البيت ليس كبيرًا، لكنه أيضًا ليس صغيرًا إن قُورن ببقية بيوت المربع السكني. إنه مكون من طابقين. ثلاثة، إن احتسبنا العِلِّيَّة. إنها غرفة تقع فوق السطح. لا يذهب إليها أحد سواي. تُسميها بقية العائلة السندرة، إلا أنني أفضل تسميتها العلية. الأمر ليس نزوة، وإنما شيء فكرت فيه كثيرًا، وأنا تحديدًا هنا، في العلية، بين قطع الأثاث القديمة والصناديق، مُحاطًا بهذا الهواء الفاتر الموجود على الدوام، وحيث تصبح أشعة الشمس، التي تدخل عبر كوة السقف وزجاج الباب المصنفر، مرئية. أشعة الشمس. كوة السقف. الزجاج المصنفر. كلما كنت هنا، يُمكنني أن أفكر: «أنا في العلية»، لكن يبدو لي مستحيلًا أن أفكر: «أنا في السندرة». ليست كل الأمور قابلة للتفكير. لماذا يجب أن تكون كل الأمور أصلًا قابلة للتفكير؟

تقع الغرف في الدور العلوي من البيت. غرفة أبويَّ، غرفة أخي الأكبر، وأيضًا تلك التي أتشاركها مع أخي الأصغر. ثمة حمامان كبيران يبدوان أقدم من بقية البيت، كأنهما وُجدا قبله وظلا يطفوان بمحاذاة ارتفاع الطابق الثاني في انتظار أن تأتي عائلتي وتشيد البيت حولهما. مظهر حوضَي الاستحمام، الصنابير، وخزانتَي الأدوية مهيب. يُشع البورسلين، المرايا، والقطع النحاسية صفارًا من أركان الحمامين. ليست البقع التي عليها في الأساس بقعًا، لأن البقعة شيء يُمكن إزالته، أما هذه فلا. لا يُمكنني تخيل صنبور حوض الوجه الموجود في حمامنا من دون لونه الزائل وهذه الغيمة الشاحبة الواقعة فوقه؛ أو مرآة خزانة أدوية حمام أبويَّ من دون هذه النقاط السوداء الموجودة عند جانبها الأيسر. مع ذلك، ما يُكسب الحمامين فعلًا هذه الأجواء القديمة - هذه الأجواء المنتمية إلى حقبة سابقة - هي بلاطات القيشاني التي تُغطي جدرانهما حتى السقف. ما الذي يجعل هذا القيشاني قديمًا؟ لا أدري. كل ما أعرفه أن عد بلاطاته أمر مستحيل. لا. هذا ليس الأمر

الوحيد الذي أعرفه. أعرف أيضًا، أن الحمامين، ليسا متطابقين أو توأمين، رغم أنهما يبدوان كذلك.

لدينا أيضًا الطابق الأرضي، الذي يبدو أكبر من الطابق العلوي، مع أنه في نفس حجمه. يبدو فقط، لأنني متيقن من أن حجمهما واحد. رغم إدراكي هذا الأمر، أحتاج كل فترة إلى مقارنة الأركان والزوايا والتحقق من أن جدران هذا الطابق وذاك، واحدة، أو بالأصح: التيقن من أن هذه الجدران على خط واحد، لأنها في الأصل ليست جدرانًا واحدة. كيف يمكنها أن تصبح واحدة؟ جدران الطابقين العلوي والأرضي على خط واحد. إنه خط واحد ذو مسار دقيق لا خطأ فيه، ومع ذلك فالطابق الأرضي أكبر.

يضم الطابق الأرضي المطبخ، غرفة الطعام، غرفة المعيشة، المكتب الذي يتشاركه أبي مع أخي الأكبر، وحمامًا آخر، لكنه أصغر ومحشور بين المطبخ والسلم. أيضًا، ثمة غرفة صغيرة لأغراض النظافة، وصالة استقبال أمام باب الدخول.

بالطبع، في مقدمة البيت، وبإطلالتها على الحديقة، تقع أيضًا غرفة الرئيس.

السلم. السلم الكبير الذي يقضي أخي الأصغر وقته وهو يلعب فوقه. هذا السلم.. في أي طابق هو؟ الأرضي أم العلوي؟ مع ذلك، فهذا ليس السؤال، إذ يُمكنني أن أرد بسهولة وأقول إنه في الطابق الأرضي. إذن، السؤال الأصح هو: إلى أي طابق ينتمي؟ إن الرد على هذا السؤال أصعب فعلًا. هل ينتمي إلى الطابق الأرضي أم العلوي؟ هل ثمة صلة بين التموضع الدقيق للسلم ومسألة أن طابقًا يبدو أكبر لي من طابقٍ آخر؟ هل هذا مكمن مفتاح التفاوت الذي أتخيله ولا أراه؟

لو أن الحمامين أقدم جزء في البيت، فغرفة الرئيس هي الجزء الأحدث، لكنها حديثة بنفس طريقة قِدم الحمامين. شيد جداي هذا البيت قبل أن يصبح الحي حيًا. لم تعد تتبقى أي أراضٍ خاوية الآن، فتتزاحم البيوت بعضها إلى جانب بعض. لكن لا أود أن أفكر في هذا الأمر: في البيوت المُتلاصقة. لقد بُنيت غرفة الرئيس قبل الحمامين، حينما كان جداي

يبنيان البيت. إنها مسألة واضحة، فكيف يُمكن بناء الحمامين أولًا، لو أن شيئًا لم يكن موجودًا في الأسفل؟

يقع حمامنا - الحمام الذي أتشاركه مع أخويَّ - فوق غرفة الرئيس بالضبط. هل يسمع الرئيس وهو هناك، في الأسفل، صوت دفق ماء المرحاض؟ هل يسمع ضوضاء الدُّش أو صمتنا ونحن نستمني؟ أحاول وأنا موجود في الحمام أن أعد بلاطات القيشاني لكيلا أفكر في هذا الأمر - لكيلا أفكر في الرئيس - لكنها بلاطات كثيرة جدًّا.

لا يوجد قبو. تخلو كل بيوت الحي من الأقبية. إنها ممنوعة منذ حقبة جديَّ. يقولون إن الأقبية شهدت أمورًا فظيعة فيما سبق، لهذا تَقرر ألا يُبنى المزيد منها. بالنسبة إلى البيوت القديمة، من الحقب السابقة للمنع، فقد أُغلقت أقبيتها. إنها بيوت رخيصة ويسهل شراؤها، رغم أنها بيوت كبيرة. لا يحب الناس الآن أن يعيشوا في هذه البيوت. إنه أمر مفهوم. من الذي قد يود أن يعيش فوق غرفة لا تبصر النور؟

من غرفة النافذة التي أتشاركها أنا وأخي الأصغر، يُمكننا أن نرى الشارع: الحديقة الأمامية الصغيرة، الباب المعدني الصغير المطلي بدهان أبيض متقشر، الرصيف والشارع نفسه. ثمة شجرة غار أوراقها داكنة، فوق الرصيف، أمام بيتنا بالضبط. إنها شجرة طويلة ووارفة. يتسلقها بين الحين والآخر أخي، الذي لا يزال صغيرًا جدًّا. أقف أمام مكتبي وأنا أؤدي فروضي المدرسية، وحين أرفع عينيَّ أراه مختبئًا بين الأغصان. في البداية، أفكر دائمًا ومن دون شك في أنه يتجسس عليَّ، لكن بعدئذٍ، أُضطر إلى الاعتراف بأنه لا يتجسس عليَّ، وإنما على غرفة الرئيس. حينئذٍ، أُحييه بيدي، لكن أخي لا يُجيبني. أعرف أن أبويَّ يتحدثان عنه أكثر من حديثهما عني أنا وأخي الأكبر. حينما يفعلان الأمر، يخفضان صوتهما. إنهما قلقان. يُفضلان، لسبب ما، فعل هذا الأمر في المطبخ؛ كأن وظيفته في البيت كونه مكانًا مخصصًا للحديث عن أمور مُعينة لا بُد أن يجري الحديث عنها بصوت منخفض. يتحدثان بشكل أكبر عن أخي الأصغر ويتحدثان أكثر مع أخي الأكبر. أنا الأخ الأوسط. أنا

الواقع دائمًا في الوسط. لا تمضي المحادثات غالبًا في اتجاهي. إنها مسألة تُريحني؛ فهذا الأمر يسمح لي على سبيل المثال بالذهاب إلى العلية، وألّا يُقاطعني أحد طوال ساعات.

لا يعرف أحد الأمر -أو على الأقل هذا هو ظني- لكنني صعدت أنا الآخر فوق شجرة الغار للتجسس على غرفة الرئيس. لا أفعل هذا الأمر الآن. الآن، وأنا جالس إلى مكتبي، وأنا أنظر إلى شجرة الغار عبر نافذة غرفتي، أتساءل كيف ستبدو هذه الشجرة من غرفة الرئيس.

قبل منع الأقبية بوقتٍ طويل، بدأت غرف الرئيس تُبنى. إنها موجودة في كل البيوت؛ أو على الأقل كل البيوت كبيتنا. إنها ليست موجودة في العمارات الواقعة في وسط المدينة. تخسر هذه العمارات امتيازات غرفة الرئيس لأنها ليست موجودة فيها. لا أعرف جيدًا ما هي هذه الامتيازات. لا أعرف أيضًا ما إذا كان أبواي يعرفانها، لكن لا أحد يُشكك في وجودها. يحتوي كل بيت في حيِّنا على غرفة للرئيس. مع ذلك، لم يأتِ الرئيس لزيارتنا قط. ليست المسألة أننا ننتظره، ففي الواقع، نحن ننسى في أغلب الوقت أن هذه الغرفة موجودة هنا. نحن ننسى، في أغلب الوقت.

قلت إن الرئيس لم يأتِ إلى حيِّنا قط، لكن هذا الأمر ليس صحيحًا بالكامل؛ ففي المدرسة، الواقعة في حيِّنا، هناك ولد أكبر مني قليلًا زاره الرئيس. أو أن هذا على الأقل، ما يقولونه. يقول الكل هذا الأمر، لأنه لا توجد أشياء كثيرة قد تُقال عن الرئيس. يقولونه، على الرغم من أن أحدًا لم يتجرأ على سؤال الولد حول صحة المسألة. يعيش الولد في حيٍّ آخر، لكنه يأتي إلى مدرستنا، كما يفعل أولاد آخرون من أحياء أخرى. هذا أمر طبيعي. إنها مدرسة كبيرة وحينا ليس فيه عدد كافٍ من الأولاد ليملأها، وأي مدرسة يجب أن تكون ملآنة.

لا نحسده. إنه ليس ولدًا مختلفًا عن أيٍّ منا. ما من شيء يجعل المرء يُفكر في أنه مميز، أو أن عائلته مختلفة. يتمشى عبر الأفنية وربطة عنقه مرتخية، وهو يشمِّر كُمَّي قميصه. يضحك ويغضب بسرعة أي واحد منا. إنه نحيف وطويل وشعره مصفف جيدًا على الدوام. إنه شاحب، لكن كثيرًا منا شاحبون. ألتقيه أحيانًا في الحمام، فأجده في أغلب الأحيان يُبلل شعره ويمرر مشطًا فوقه، قبل أن يضعه لاحقًا في الجيب الخلفي لبنطلونه. لم أتشجع

على التحدث معه لأنه أكبر مني، لكنني سمعته يتحدث مع أولاد آخرين في سنِّه، ولا يبدو أنه يتميز بشيء ما على وجه الخصوص. يضحك على أي شيء، ويغضب من أي شيء، ويتدافع مع أصدقائه حينما تمر إحدى الفتيات الجميلات قربهم، كما أفعل أنا وأصدقائي. لا أعرف السبب، لكننا هكذا في المدرسة: نتصرف كأننا أصغر سنًّا؛ وكأن صحبة الآخرين تروقنا، رغم أننا ونحن وحدنا في منازلنا يغلبنا ذلك القلق الذي يجعلنا نرغب في الاختباء وأن نصبح أكثر وحدة. لا أعرف أين يختبئ الآخرون، أو أين يختبئ هذا الولد الذي زاره «الرئيس»، لكن ما أعرفه أنني أختبئ في العلية.

الأدلة معدومة. لم يسأله أحد عن الأمر. مع ذلك، أنا متأكد من صحة ما يقولونه؛ من أن الرئيس زار بيت هذا الولد. لقد رأيته، وراقبته في الفعَّاليات المدرسية وفي خُطب المديرة وفي اللحظات التي وجب علينا أن نصمت ونتنبه فيها، وأنا متأكد من أنه بينما نفكر في هذا الشيء أو ذاك ونحن ضجرون ومتوترون، فإنه يفكر في شيء واحد فقط: في الرئيس. ثمة قلق في وجهه، وكأنه سيصبح فجأة وجهًا بالغًا، وهذا فقط لأنه يفكر في الرئيس كثيرًا.. أكثر بكثير منا.

يتغير البيت ليلًا. أتجول فيه أحيانًا، وعائلتي نائمة. لا يرتبط التغير بالظلام. لا يرتبط كذلك بالحرارة. الأمر كأن البيت يُغير علاقته مع ما هو موجود في الخارج، وحينئذٍ يعني الوجود داخله أمرًا آخر. أضع أذني على الجدران، والأبواب، والأرضيات والسطح. أسير حافيًا ولا أدخل غرفة الرئيس أبدًا.

سكان البيت ليلًا أكثر من سكانه نهارًا.

لكن الأمر يرتبط فعلًا بالظلام، وبالمثل بالحرارة. ربما بالحرارة أكثر من الظلام. الدور العلوي مريح أكثر من الأرضي. أركان الغرف أبرد من منتصفها. العلية أدفأ مكان بين كل الأماكن. تيارات الهواء مستقرة في السلم على الدوام. هذا نهارًا؛ أمَّا ليلًا، فحرارة البيت الوحيدة هي حرارة جسدي.

شجرة الغار الواقعة أمام بيتنا طويلة ووارفة. يقول كل من يأتي إلينا لأول مرة إنها أكبر شجرة غار رآها. منذ بُني البيت، وهي موجودة. من قبل أن يصبح الحيُّ حيًّا. تغدو أشعة الشمس مرئية بين خُضرتها، كما يحدث في العلية. أعرف الأمر لأنني اعتدت أن أتسلقها فيما سبق، لكنني لم أعد أفعل هذا الأمر الآن. ما أفعله الآن هو الصعود إلى العلية، أو إلى السطح. ثمة مرات لا أدخل فيها إلى العلية وأمكث في السطح، فأظل أنظر إلى أسقف البيوت المجاورة، رؤوس الأشجار الموجودة في المربع السكني، أفق الطرق، والبنايات الموجودة في وسط المدينة، أو عاصفة ما تقترب، أو السماء التي تخلو من الغيوم. يتعاظم الضوء إن غابت السحب، فأشعر أنني عاجز عن التقاط أنفاسي. يتواثب ضوء القيلولة فوق أرضية السطح البيضاء ويعميني. حينئذٍ، لا أبصر شيئًا سوى رأس شجرة الغار وهي تتراءى لي على بعد بضعة أمتار. إنها داكنة. هنا يبزغ ذلك السؤال ويُصيبني الإحباط قليلًا. أتخيل نفسي وأنا أركض وأثب وأحاول الوصول إلى شجرة الغار، فأسقط بذراعين مفتوحتين. لا أتمكن أبدًا من رؤية نفسي أصل إلى هناك مهما حاولت، سواء بعينين مفتوحتين، أو بعينين شبه مفتوحتين تحت وطأة الشمس. لا أتمكن أبدًا من تخيل نفسي وأنا أسقط فوق الأغصان. يظل السؤال بلا جواب، وأبقى دائخًا بعض الشيء، مع إحساسٍ بأنني أوشكت على الشعور بشيء ما. ما يُمكنني أن أشعر به فعلًا هو اصطدامي بالرصيف. إنها ضربة مكتومة ترج المرء وتدوخه. تبدو مثل صفعات جدِّي. الفارق أن جدي ليس موجودًا، أما شجرة الغار فموجودة.

بينما أنا موجود في السطح، وسماء القيلولة شديدة الزرقة، إذا بي أسمع موسيقى. إنها موسيقى يعزفها أحد ما عن طريق أدوات حقيقية. إنه شخص أو عدة أشخاص. لم أتمكن من تحديد الاتجاه الذي تأتي منه، من أي بيت، من يعزفونها، أو من يستمعون إليها. تأتي بين ثنايا الهواء وهي متشابكة مع ضوضاء المدينة التي ليست كثيرة كما قد يفترض المرء. تأتي من بعيد. المدينة بعيدة. الأمر كأن المدينة موجودة دائمًا في مكان آخر. أيضًا، ثمة لحظة تبقى فيها هذه الموسيقى وحيدة وهي ترتعش في الهواء، وهي اللحظة ذاتها التي تسبق اختفاءها.

يعاني أخي الأصغر من الحمى مجددًا. إنه موجود في الفراش، أسفل الغطاء، ورائي بالضبط، منذ الأمس. يُراقبني وأنا أكتب أثناء جلوسي إلى المكتب. يسألني: «ما الذي تكتبه؟» فأقول له من دون أن ألتفت: «أكتب أنك تنظر إليّ وأنا أكتب». يُجيبني: «أنا لا أنظر إليك»، فألتفت وأراه ينظر إليّ، بعينين متسعتين تلمعان من فرط الحمى. لو أننا أخوان جيدان، لضحك كلانا في تلك اللحظة، لكننا لسنا أخوين جيدين. لم نضحك. لا أتذكر ما إذا كنا ضحكنا ذات مرة معًا، في نفس الوقت. لم نُصب بعضنا بالعدوى. لا عدوى الضحك، ولا عدوى المرض. أخي الأكبر لا يدخل في الحسبة لأنه لا يضحك أو يمرض أبدًا.

قبل أن تُصيب الحمى أخي الأصغر، عانى الجد منها سابقًا. الفارق أن الجد استاء من الأمر. لم يسمح لأحد بالاقتراب منه. لطالما صرخ، تحدَّث بمفرده، سبَّ ولعن. يصمت أخي الأصغر، على النقيض في أغلب الأوقات، ويقضي أيامه هكذا، منتظرًا أن تذهب الحمى كما جاءت. لم يتعرف أخي الأصغر إلى جدي، لكنني حين أراه هكذا، وهو ملتحف بأغطية الفراش، بعينين ثابتتين لامعتين تحدقان إلى إحدى زوايا السقف، أفكر في أن ما يفعله هو الاستماع إلى الجد. إنه يسمعه وهو يصرخ. وهو يتحدث بمفرده. وهو يسب. أحدهما حي والآخر ميت، لكن كليهما يعاني من الحمى.

أمنا، أكثر من يدخل «غرفة الرئيس». إنها مسألة طبيعية أن يصبح الأمر هكذا، فهي مَن تنظف البيت. تدخل الغرفة مرة واحدة أسبوعيًا وتنظفها. في تلك الأثناء، تترك الباب مواربًا. حين ترحل، يظل الباب على هذه الشاكلة، مفتوحًا بزاوية، طوال ساعات، كي تنشف الأرض، وهذا لأن أمنا لا تفضل أن تفتح النافذة. حينئذٍ، يبدأ الترصُّد: نبحث أنا وأخي الأصغر عن أي حجة كي نقف أمام الباب وننظر خلسة إلى ما هو موجود في الداخل. ليس الأمر أن دخولنا ممنوع، لكن إن دخلنا واكتشفا الأمر، فسينبغي علينا أن نجيب على أسئلة صارمة. كلانا يرغب في تجنب المسألة. إنها تحقيقات طويلة ومقيتة من أبوينا. ينظر فيها كل منهما إلى الآخر مع كل إجابة وهما يسجلانها (أو أن أبانا هو من يسجلها بمفرده). ومهما كان ردنا في تلك المرات، فإنهما يتعاملان بجدية تُصيبنا بالفزع. يستحيل معرفة ما إذا كنا قد ارتكبنا فعلًا سيئًا. لا توجد تبعات أبدًا. لهذا يقتصر ما نفعله على الترصد، والنظر خلسة

إلى ذلك القطاع الذي يُظهره لنا الباب الموارب من الغرفة: نفس المكتبة، نفس الكتب، الأغراض، حافة المكتب، والمشجب المنتصب دائمًا في الركن، عاريًا من أي ملابس فوقه. لا شيء مثير حقًّا. لا شيء جديد في منظومة الأشياء. مع ذلك، ثمة مرة أسبوعية، حينما تنظف أمنا غرفة الرئيس، تهزمنا فيها الغواية ونترصدها. في الوقت نفسه، نتفادى بعضنا بعضًا. إذن، هو ترصُّد وتآمر؛ وهو تآمر غير ضروري، لأننا لسنا هنا لنفس السبب. تجذب أخي الأصغر الأغراض التي تراكمت في غرفة الرئيس منذ حقبة جدي. ما يجذبني، الغرفة نفسها ورغبتي في رؤيتها من دون أثاث أو زينة: غرفة الرئيس كما كانت بالضبط منذ بدايتها.

في النهاية، حين تُغلِق أمنا الباب، نتنهد أنا وأخي بارتياح، أيًّا كان مكاننا.

نحفظ أماكن الأغراض الموجودة في غرفة الرئيس؛ بل إننا نعرف ترتيب وصولها. المكتب، ثم مقعد الصالون ذو الظهر المتحرك، فالفراش الموجود في أحد الأركان. هذه أولى الأشياء التي جاء بها جدي. ساهمت جدتي بالملاءات والأغطية، ثم سجادة صغيرة للمدخل. بعدئذٍ، جلب جدي مصباحًا للمكتب، والمشجب فالمكتبتين. حينئذٍ، بدأت جدتي تجلب بعض الكتب، وبعض الديكورات. أضاف جدي إلى ركن آخر طاولة صغيرة للمشروبات، بعض أكواب الويسكي المصنوعة من الزجاج المحفور، وزجاجة. هنالك منفضة سجائر رخامية ضخمة كسرتها جدتي وهي تنظف ذات مرة ثم أصلحتها لاحقًا بالصمغ. في أدراج المكتب ثمة عيدان ثقاب، سجائر، فنجان ضخم، فنجان آخر صغير للقهوة، ظروف سكر صغيرة، مشط، فرشاة أسنان، مقص صغير للأظافر، مناديل ورقية، منديلان قماشيان، رزم من أوراق اللعب، ومجلة للكلمات المتقاطعة.

توجد أشياء أكثر؛ أشياء كثيرة لا نعرفها، لكن حين نفكر في الأمر، نفكر في أننا فعلًا نحفظ كل شيء في ذاكرتنا، وفي أننا نعرف كيف وصل كل غرض إلى هناك.

مرَّ أبونا بفترة حماس جاء فيها بأشياء كثيرة إلى الغرفة. أغلبها كتب علمية تروقه، أما أمنا فلا. منذ تشكلت ذاكرتي، ثمة مرة واحدة فقط أضاف فيها أحد من العائلة شيئًا جديدًا إلى

الغرفة. إنه أخي الأكبر. ذات صباح، أثناء الإفطار، ونحن نستعد للذهاب إلى المدرسة، قال أخي الأكبر من دون أن يرفع نظرته من فوق قدح القهوة بالحليب، إنه يرغب في جلب شيء إلى غرفة الرئيس. لا. لم يقل هذا. قال شيئًا آخر. كان عمره اثنَي عشر عامًا ولا يزال رأسه كبيرًا على جسده. لقد قال: «لديَّ شيء من أجل الرئيس». هذا هو ما قاله. تبادل أبوانا النظرات في صمت، ثم سألته أمنا: «وما الذي لديك؟» فصعد أخي إلى الغرفة التي تشاركها ثلاثتنا آنذاك وجلب عدسة مكبرة مقبضها من الخشب. إنها عدسة كبيرة بشكل ملحوظ. قال أبوانا إننا سنتحدث جميعًا عن الأمر أثناء العشاء، وتوجهنا بعدئذٍ إلى المدرسة. في تلك الليلة، نفذنا الطقس الصغير. كان الطقس كما يلي: وجب علينا جميعًا، بمن فيهم أخي الأصغر وأنا - رغم أننا كنا لا نزال صغيرين على تفهم ما يحدث - أن نتفق، ثم وجب علينا أن نتخيل جميعًا ما هي الأشياء التي قد يفعلها الرئيس بهذه العدسة المكبرة. كانت مهمة طويلة ومسلية وواحدة من المرات القليلة التي جاءت وذهبت فيها الضحكة فيما بيننا. في النهاية، حينما لم تخطر على بالنا أية احتمالية أخرى، دخل أخي الأكبر غرفة الرئيس واختار مكان العدسة المكبرة. تركها فوق أحد أرفف المكتبة، إلى جوار صف من الأفيال مختلفة الحجم. ظلت الأفيال تتضخم وهي تقترب من العدسة المكبرة. في تلك اللحظة لم أفهم الأمر، لكن لم يُعجبني أيضًا المكان الذي اختاره أخي الأكبر. بدا لي مكانًا لافتًا للانتباه جدًّا. لكن هذه هي طبيعة أخي الأكبر. أنا، على النقيض، كنت لأضعها في أحد أدراج المكتب أو لأخفيها بين المناديل على سبيل المثال. هكذا هي حالي، لكن على أية حال، لا يُمكنني قول الكثير، فعلى الرغم من المرات الكثيرة التي حاولت فيها، لم أتمكن من العثور على شيء أود أن آخذه إلى غرفة الرئيس.

ربما يكمن الفارق في أن أخي الأكبر جاء بالعدسة المكبرة إلى غرفة الرئيس، أما أنا فأظل أبحث دائمًا عن غرض لغرفة الرئيس. أعرف أن الأمر قد يكون واحدًا، لكنه ليس هكذا؛ فثمة هوة موجودة هنا تسقط فيها كل الأغراض التي نظرت إليها ذات مرة وهذه النية داخلي، فتتيه الأغراض وتسقط في هذا الفراغ. لكنني لا أفكر في الأمر كثيرًا، إذ أعرف أنني أنا الآخر سأسقط لو واصلت التفكير.

استمرت حمى أخي لفترة أطول من كل المرات السابقة. ما لا ينطق به وهو مستيقظ، ينطق به وهو نائم. ما يقوله غير مفهوم، لكنه يقول شيئًا ما. هل يتظاهر أخي الأصغر بإصابته بالحمى؟ إنها مسألة محتملة، فالحمى لا يمكن أن تكون حقيقية بصورة كاملة أبدًا.

ذهبت مرة واحدة فقط إلى بيتٍ سبق أن احتوى قبوًا. حدث هذا في عيد ميلاد زميل من المدرسة. كنا كثيرين وأحدثنا جلبة كبيرة. مع ذلك، أنا واثق بأن الكل لاحظوا وجود هذه الغرفة المغلقة. ثمة سلم، وراء أحد الحوائط، ينزل في العتمة. لعبنا وحاولنا بخجل أن نلفت انتباه الفتيات، لكن كل ما قلناه وضحكاتنا القوية لم يهم. الصدى كان مختلفًا. كان جسيمًا. لقد وصلت أصواتنا إلى الدواخل السوداء لهذه الغرفة المغلقة وارتدت بعد تصادمها مع المجهول.

العمارات ليست ممنوعة كالأقبية، لكن هذا لا يعني أنها مقبولة. الأدوار العليا في بعضها كثيرة، إلى درجة أن الأدوار السفلية تتحول إلى أشياء أخرى وتبدأ أمور رهيبة في الحدوث. يقولون إن الأرض للموتى والهواء للأحياء. إذن، لمن هذه الشقق المدفونة -بل المقبورة- وسط الهواء؟

لم يعد أخي الأصغر مُصابًا بالحمى. أنا الآن المصاب بالحمى. لم أقل شيئًا لأبويَّ. أعتقد أن أمنا قد لاحظت الأمر، لكن لأنني لم أقل شيئًا، لم تقل هي الأخرى شيئًا. حرارة هذه الحمى ليست مرتفعة. تخنقني فقط مع حلول المساء، وأنا في العلية، أما خلال النهار فهي كمناخ مستقل يحيط بي؛ كأن الحمى تقع خارجي، لا داخلي. ليست أول مرة يحدث لي هذا الأمر. ليست أيضًا أول مرة أجد نفسي وأنا أعاني من الحمى أفعل الأمور بطريقة لم أكن لأقدم عليها لولاها. ذات مرة قلت للفتاة التي تعجبني إنها تعجبني، فضحكتْ، ومنذ ذلك الحين أعرف أنني أعجبها، وأنها تنظر إليَّ. بالأمس، في حمام المدرسة، وأنا أرطب وجهي المشتعل، دخل الولد الذي يقولون إن الرئيس زاره. بلل وجهه هو الآخر، وشعره، ثم أخرج مشطه، وصففه. نظر كل منا إلى الآخر عبر المرآة وقلت له: «أهلًا»، فقال هو الآخر: «أهلًا» واستمر في تصفيف شعره. كنت قد أنهيت غسل وجهي وانبغى عليَّ الرحيل، لكنني لم

أرحل. ظللت أنظر إلى نفسي في المرآة. سطعت عيناي بفعل الحُمى. بدوت شاحبًا مع هالات سوداء تحت عينيَّ. لمَّا خرجت إلى الفناء وبحثت عن الفتاة التي تُعجبني، لم أجدها.

هل ترتفع الحمى، فأفكر في أشياء تُصيبني بالحزن، أم أنني حين أفكر في أشياء تُصيبني بالحزن ترتفع الحمى؟ أجلس على أرضية العلية، مستندًا إلى كومود قديم رائحته رطبة. أشعر بالعرق البارد وتصلب جلدي. ألف جسدي بأحد أغطية السرير وأقول في نفسي إنني لن أفكر في جُدران الجِيرة، لكنني بمجرد قولي هذا الأمر، أحفز هذه الفكرة. لا ينبغي أن يتلامس بيت مع بيت آخر؛ على الأقل طوال الوقت. هل العيش هكذا ممكن؟ يُمكنني أحيانًا أن أسمع وأنا في غرفتي ضوضاء الجيران. ما من شيء غريب ومرعب أكثر من هذا. أفكر وأنا تحت أثر الحمى: لا ينبغي أن تتلامس البيوت طوال الوقت. لا أعرف ما هو شكل البيت الذي نعيش فيه. لا أعرف ما هو شكل جسدي الذي يلامس دائمًا شيئًا ما. أُفكر في هذا وأرتعش.

هل مرِض الرئيس ذات مرة؟ يظهر الرئيس كل يوم في الصحف وفي التلفاز. إنه رجل طويل؛ طويل جدًّا وظهره محدب بعض الشيء. يقترب عمره على الأرجح من السبعين. يسير ببطء ويتحدث ببطء. يستخدم بدلات متشابهة بدرجات زرقاء ورمادية متنوعة. مقاسها كبير عليه، وفقًا لأمي. يغيِّر دائمًا ربطات عنقه. الرئيس هو نبأ كل يوم، لكنهم لم يقولوا قط ما إذا كان قد زار أحدًا. هذه الجزئية ليست نبأ. وجهه كبير؛ أقصد الرئيس الذي لطالما أخافني في طفولتي، أما الآن فلا. يشبه أنفه البطاطا، ولهذا تقول أمنا إنه ترك شاربه كي يخفيه قليلًا. نعرف ما هو لون عينيه، لكننا لا نعرف كيف هي نظرته لأنه -بالطبع- لا ينظر أبدًا إلى الكاميرا.

الحمى في جلدي. الحمى هي جلدي. تجعله يتضاعف. جلدي. الجلد. حين أصاب بالحمى، يصبح جلدي محسوسًا. يغدو له معناه. حينئذٍ، أشك: هل جلدي لي دائمًا؟ أم أنه يُصبح أحيانًا جزءًا مما هو موجود في الهواء؛ مما هو موجود في الخارج ويُحيط بي؟ جلدي مثل جدران الجيرة؛ مثل الجدران البينية والمتلاصقة. أعاني وأنا أفكر، وأعاني وأنا لا أفكر.

أعاني كي أعرف إلى أي بيت قد ينتمي أي جدار. كل المدينة على هذه الشاكلة: مليئة بالجدران التي يتشاركها بيت مع بيت آخر. ترتفع الحمى ويشتعل جلدي. ألمس وجهي، فلا يتعرف جلده على جلد أصابعي. جلدي جدار ولا أعرف ما الموجود على جانبه هذا وما الموجود على جانبه ذاك.

انتهت الحمى. لا يزال صدى هذه الأيام باقيًا داخلي، رغم أنني أشعر بأني في حالة جيدة. إنها أفكار تُربكني. يُصيبني الهوس وأنا في العلية -وأنا في ساعات القيلولة- فأحاول أن أفكر في كيفية العيش في عمارات وسط المدينة، حيث لا يمتلكون غرفًا للرئيس. هناك، ليست الجدران هي الشيء البيني الوحيد، وإنما الأسقف والأرضيات. إذن، هل الشقة السفلية قبو لنظيرتها العلوية؟ هل الشقة العلوية علية لنظيرتها السفلية؟ هل ثمة لحظة في اليوم لا يعرف فيها قاطنو هذه الشقق أو يشكُّون في أي طابق يُوجدون؟ ما هو «الأعلى» وما هو «الأسفل» بالنسبة إليهم؟ إن التفكير في كل هذا يُربكني، لكن أعترف بأن هذا الإحساس ليس كريهًا بصورة كاملة.

لم تأتِ الفتاة التي تُعجبني إلى المدرسة منذ فترة تخطت شهرًا. أدركت الأمر في الأيام الماضية وأنا أبحث عنها، حين أصابتني الحمى وودت أن أتحدث معها. إنها تعجبني منذ فترة تخطت العامين. أتلصص عليها منذ أكثر من عامين في فترات الفسحة. قالت لي صديقاتها إنها اضطرت إلى السفر بسبب مشكلة عائلية. كيف لم أدرك الأمر؟ من الذي ظللت أنظر إليه طوال هذا الوقت؟

مات جدي بعد أن وُلدت. غرفة أخي الأكبر الآن كانت غرفة جدي فيما سبق. ليس لديَّ ذكريات كثيرة عنه. لا تأتي ذكرياتي وفق رغبتي، وإنما هكذا بمفردها، ثم تمضي لاحقًا في حال سبيلها. إنها ذكريات مليئة بأشياء كبيرة، وهي أشياء كبيرة لها ظلال كبيرة، لأن المرء وهو طفل يجد نفسه أقرب إلى الظلال عن الأشياء. أحيانًا، حين أسمع ضوضاء قادمة من غرفة أخي الأكبر أحسب للحظة أن جدي هو من يُصدر هذه الجلبة. أفكر أحيانًا في أن أخي الأكبر هو جدي. قال لي إنني ذات ليلة دخلت إلى غرفته وهو نائم وتحدثت معه

كأنني أتحاور مع جدي. لست متأكدًا من صحة المسألة. لا أعرف ما إذا كُنت قد تحدثت مع جدي؛ أو ما إذا كنت قد تعلمت كيفية التحدث قبل موته. ما الذي قد أقوله لجدي؟ لا يخطر شيء على بالي. لا يخطر لي أيضًا ما الذي قد أقوله لأخي الأكبر. شعرت منذ بضع ساعات برغبة في التحدث معه، ولهذا بحثت عنه. وجدته في المكتب الذي يتشاركه مع أبينا، وهو يميل بجسده فوق كتبه، وجبينه مقطب. سألته ما الذي يدرسه. دُهش في البداية واحمر وجهه. فارق السن بيني وبينه ليس كبيرًا، لهذا لا يغدو ملحوظًا إلا حين نتحدث.. في المرات القليلة التي نتحدث فيها. بعدئذٍ، بدأ يحكي لي عما يقرؤه. حاولت أن أتابعه، لكنني تُهت. تحدث عن أحد قوانين الفيزياء. هذا هو ما يدرسه أخي: الفيزياء. أومأت برأسي بين الحين والآخر. رفعت حاجبيّ. كنت رائقًا، رغم أنني لم أفهم شيئًا مما شرحه. يعرف أخي الأكبر أمورًا كثيرة، بل أظن أنه يعرف أكثر مما عرفه جدي. كان جدي رجلًا قليل الكلام. هذا هو ما قالته أمنا أكثر من مرة. في بعض الأحيان، يبدو الأمر كثناء، وفي أحيانٍ أخرى كذمٍّ. أخي الأكبر كلامه كثير، لكنه لا ينطقه. هذا ثناء. أيضًا، هذا ذم. لما فرغ من شرحه، بدا مُنهكًا. علمت أنه ينبغي عليّ أن أقول شيئًا لطيفًا، فقلته. ابتسم أخي الأكبر. قلت لاحقًا من دون وجود أي سبب: «قوانين الفيزياء غير مرئية». رفع أخي الأكبر حاجبه وقال لي إنني محق. في تلك اللحظة شعرت أنني الجد وأنه الحفيد. شعرت أنني عجوز وشارد. هل ثمة قانون فيزيائي في تلك التحولات؟ لاحقًا، لمَّا خرج أخي إلى كليته، دخلت إلى المكتب وتصفحت بعضًا من كتبه. قضيت وقتًا طويلًا أراجع الأوراق وأقرأ بعض الفقرات، وأنا أنظر إلى الجدول والرسومات. ازداد فهمي قليلًا، لكنه لم يزدد جدًّا.

أتخيل أحيانًا، وأنا في الحمام، أن البيت لن يصبح موجودًا، لدى انفتاح الباب، وإنما الفراغ. الحمام وهو يطفو في الهواء قبل أن يُصبح البيت بيتًا. بالقرب منه سيكون ثمة حمام آخر وفي البُعد شجرة الغار. في البداية، لما تخيلت الأمر، اجتاحتني متعة لم أفهمها. بعدئذٍ، اكتأبت ولم أعرف لِمَ اكتأبت. هكذا، تصبح طريقة الخروج الوحيدة هي إغلاق عينيَّ، فتح الباب، وقطع الخطوة الأولى.

لم يكن الرئيس دومًا هو الرئيس. هناك آخرون قبله، وبعده سيأتي واحد آخر. في بعض البيوت، يضع الناس صورًا صغيرة للرؤساء الأموات في غرفة الرئيس، وأعرف هذه المسألة لأن زملائي في المدرسة قالوها لي. يبدو هذا الأمر لأمنا قلة ذوق. تقول إنه لا يوجد شيء طيب في أن يرى الرئيس أسلافه. أنا لا أعرف ما هو رأيي، وهذا لأن معرفة ما قد يفعله الرئيس لو دخل الغرفة ذات مرة أمر صعب جدًا. سيروقني أن أسأل هذا الولد من المدرسة عن المسألة. يقولون إن أمرًا لم يسر بشكل جيد في بيته، وإنه شوهد والخوف يتملكه لفترة طويلة. يقولون إنه كان أنحف وأشحب؛ إنه لم ينظر مباشرة في أعين الناس وإنه لطالما بحث عن شيء ما في الأركان، لكن الخوف يشبه جدًا أمورًا كثيرة أخرى، وثمة أمور كثيرة يُمكن البحث عنها في الأركان.

اختفى أخي الأصغر مرة أخرى. ثمة مرات يُصاب فيها بالحمى، وفي مرات أخرى يختفي. حين يحدث هذا، أخرج أنا وأبوانا وأخي الأكبر لنبحث عنه في الحي. نعرف أنه يأخذ دراجته الهوائية، وأنه يفكر بالطبع في أمر آخر، ومن ثم أنه لم يعد لهذا السبب. يقود الدراجة، فيتوه، وحين نعثر عليه بعدئذٍ بعدة ساعات مع دخول الليل، يُحيينا كأنه هو من يبحث عنا. سنخرج الآن بعد برهة. علينا أن نأخذ الكشافات. سنمضي أنا وأبي سيرًا.
سيأخذ أخي الأكبر وأمي السيارة. سيقودها أخي الأكبر. في المرة الأخيرة التي اختفى فيها أخي الأصغر، استغرقنا عدة ساعات للعثور عليه. وجدناه يمضي في منتصف شارع مشجَّر تتلامس فيه رؤوس الأشجار الموجودة على ضفتيه، فتغطي إضاءة أعمدة الإنارة. كان أخي يمضي بصورة متعرجة، ويبتعد ببطء، من دون تسرع. رأيناه ينعطف عند ناصية، فهتف أبي باسمه. التفتْ وحين تعرف علينا دار وتقدم بدراجته نحونا. بدت ابتسامته مشعة، أما أنا فقد كانت قدماي تؤلمانني من كثرة السير. كان الوقت قد تأخر وبدا أبونا في تلك المرة غاضبًا. مع ذلك، لم يقل شيئًا. لم يقل الكثير. كل ما فعله هو أنه أنَّبه بصورة بسيطة لمغادرته دون إنذار مسبق. فكرت: هذا ليس تأنيبًا. لو أن أخي قد أبلغه، لم يكن ليصبح تائهًا، أو مفقودًا. كان لا بُد أن يؤنبه بشكل آخر. على سبيل المثال، أنا كنت لأقول له إنني فوَّت مشاهدة برنامجي التليفزيوني المفضل بسببه.

في تلك المرة الأخيرة، سرنا ساعات كثيرة أنا وأبي بمفردنا عبر شوارع الحي. نبحت الكلاب علينا ونحن في منطقة المستودعات، بل إن أحدها عوى. بدا كأنه يبكي. تشتت انتباهي وأنا أحاول تخيل المكان الذي تحتله غرفة الرئيس في كل بيت من البيوت. شاهدنا أكثر من مرة سيارتنا وهي تمر على بعد عدة مربعات سكنية. سارت ببطء؛ ببطء شديد. لم يظهر أخي الأكبر أو أمي. بدا الأمر كأن السيارة تمضي بمفردها. بدت كأنها ستتوقف، لكنها لم تتوقف قط.

بوجه عام، تقع غرفة الرئيس في الدور الأرضي بالقرب من مدخل البيت. عادة، توجد نافذة تطل على الشارع في جزئها الأمامي. قد تقع على اليمين أو على اليسار. لا يوجد فارق. أهم شيء أن تقع بالقرب من المدخل، على الرغم من عدم وضوح ما إذا كان مرد الأمر ألا يواجه الرئيس مشكلات في العثور عليها، أم لكيلا يذهب بعيدًا، ويدخل غرفًا لا تخصه. هل يسهل على الرئيس دائمًا التعرف على غرفته؟ يصعب على المرء -إن لم يعرف البيوت من دواخلها- أن يخمن وهو في الشارع أي واحدة هي نافذة غرفة الرئيس.

تقول أمنا إن وضع صور للرؤساء الموتى في غرفة الرئيس أمر سيئ. مع ذلك، أعرف -بل يعرف كل من في منزلنا- أن هناك مسدسًا ذا ساقِيةٍ موجود في الدرج الأيمن للمكتب.

هل تحدثتُ ذات مرة مع جدي؟ أتذكر صوت صفعاته أكثر من صوته نفسه. لم يضربني أنا -فقد كنت صغيرًا جدًّا- وإنما ضرب أخي الأكبر، الذي بات الآن مالكًا لغرفته.

في بعض الليالي، أتمشَّى ليلًا وسط البيت المظلم والكل نيام، وفي هذه الليالي أسمع ضوضاء الصفعات. حينئذٍ، أستند إلى جدار غرفة أخي الأكبر وأسمع صوت الصفعة. إنه دوي لا لبس فيه.

لم نجد أخي الأصغر. عدنا إلى البيت. ودت أمنا أن تطلب الشرطة، لكن أبانا منعها. مرات قليلة رأيت فيها أبانا يمنع شخصًا ما مِن فعل شيء ما. كانا غاضبين. كلنا شعرنا بالغضب، لكن لا يمكنني تأكيد أن مردَّ غضبنا واحد. بكت أمنا وأغلقت على نفسها باب الحمام. تمكنت

من سماعها في فراشي، وأنا أنتظر الشروق. هل بكت لأن أخي الأصغر لم يظهر أم لأنها منهكة؟ وإذا كانت تبكي لأنها منهكة، فهل هي منهكة من إقدام أخي الأصغر على فعل هذه الأمور أم أنها منهكة هكذا ببساطة؟ عجزت أنا الآخر عن النوم. فكرت في الصعود إلى العلية، لكن لمَّا رأيت عبر نافذة غرفتنا الهيئة المهيبة لشجرة الغار في وسط الليل، شعرت بحاجة إلى تسلق هذه الشجرة. ارتديت ملابسي من دون إحداث جلبة، نزلت وخرجت. تسلقت شجرة الغار. بينما أفعل هذا الأمر، أدركت أن جسدي قد نما. رفعتني ذراعاي بسهولة أكبر، لكن المساحة بين الأغصان تصاغرت. شق عليَّ العثور على وضعية مريحة. في البداية، ظللت أنظر إلى نهاية الشارع وأسقف المستودعات الظاهرة على بعد عدة مربعات سكنية ومن ورائها أفق الطريق السريع وعمارات وسط المدينة. أشعرتني هذه الصورة بالنعاس. لا أعرف كم نمت من الوقت، لكنني استيقظت فجأة، وأنا على وشك السقوط من فوق الغصن الذي استندت إليه. نظرت إلى البيت، بعد أن تشبثت به وانتهى فزعي. لم أفكر في غرفة الرئيس، إلا حين رأيت عبر النافذة طيف رجل جالس على مقعد الصالون. ظهر بصورة جانبية ورفع في تلك اللحظة كوبًا نحو فمه. توقف قلبي وفكرت: «إنه الرئيس»، لكنني أدركت على الفور أنه لم يكن الرئيس. إنه أبونا. جلس أبونا على مقعد الرئيس، وظل يشرب من ويسكي الرئيس. تسيد الظلام كل شيء. أبونا هو أبونا، لكنه أيضًا طيف أسود وساكن. لم أود أن أرى هذا الأمر، ومع ذلك عجزت عن منع نفسي من النظر. أبونا. إنه شخص غريب. لم ينظر الشخص الغريب عبر النافذة، وإنما إلى شيء ما داخل ظلام الغرفة. تساءلت وأنا أتشبث بالغصن ما إذا كان الغريب قد رآني وأنا أتسلق شجرة الغار. شعرت بالخجل. استغربت أبانا. ظل الغريب يرفع الكوب نحو فمه بين الفينة والأخرى. بحثت عن أبينا في هذه الإيماءة الوحيدة، لكن لم أعثر عليه. أين هو أبونا؟ أين هو أخي الأصغر؟ تساءلت عن هذا الأمر وتساءلت أيضًا: ماذا لو أنني أيضًا غريب بالنسبة إلى هذا الغريب؟ هذا لو أنه نظر أصلًا عبر النافذة ورآني. آلمتني رقبتي وشعرت بتوتر في عضلاتها. شعرت بالعضلات نفسها. في لحظة ما، نهض الغريب واقفًا واختفى من أمام عينيَّ. شاهدت ضوء صالة الاستقبال حينما انفتح باب غرفة الرئيس وخرج. نزلت من فوق شجرة الغار ودخلت البيت في حين يصعد أبي السلم. حينئذٍ، التفتَ إليَّ ورآني.

ظهر أخي الأصغر مع الشروق، ونحن جميعًا نيام. لم يسمع أحد وصوله وهو يقود دراجته الهوائية، بابتسامته المشعة، كأنه ظل يبحث عنا ووجدنا أخيرًا. لم أسمعه وهو يدخل الغرفة ويرقد لينام. لمَّا استيقظت، وجدته هناك. نام طوال اليوم. تحدث أبوانا كثيرًا في المطبخ؛ كثيرًا وبصوت منخفض. كان يومًا لتنفس الصعداء، لكن أيضًا للنظرات المختلسة. لم أرَ الغريب منذ ذلك اليوم، لكن بين الحين والآخر أشتاق إلى أبينا.

ما الأمور التي ساءت في بيت الولد الذي زاره الرئيس؟ هل هو شيء في الغرفة وجب ألا يوضع فيها؟ ما الذي فعله الرئيس؟ كم من الوقت ظل هناك؟ هذا هو ما نفعله لكيلا نفكر فيما قد يفعله الرئيس لو زارنا: التفكير فيما فعله حين زار الولد.

يبتسم الرئيس بإرهاق دائمًا أمام الكاميرات. صوته أجش وجاف ويتنحنح بين الفينة والأخرى. لو جاء ذات مرة، فسأود أن أسأله عن رأيه في جدران الجيرة وفي البيوت التي يلتصق كل منها بالآخر. أيضًا، سأود أن أسأله هل يفضل كلمة «عِلِّيَّة» أم كلمة «سندرة»؟

أين يحتفظ الناس الذين يعيشون في وسط المدينة - في العمارات التي لا يوجد فيها غرف الرئيس - بالأغراض المخصصة للرئيس؟ أين يحتفظ الناس بالأفكار المرتبطة بهذه الأغراض وبهذه الغرفة التي ليست موجودة لديهم؟ نحن لا نفكر أكثر من اللازم في غرفة الرئيس، وإنما نفكر بالمقدار الدقيق والضروري الذي قد نفكر به في أي جزء آخر في البيت.

حينما أفكر في مكانٍ ما، أكون في مكان آخر. فقط، وأنا موجود في العلية، أفكر في العلية.

تشاجر الولد الذي زاره الرئيس صباح اليوم مع أحد أفضل أصدقائه. حدث هذا في الفسحة الأولى، والبرد لا يزال سائدًا، حين غادرنا الفناء وأبخرة صغيرة تتصاعد من أفواهنا. يصعب معرفة من الذي فاز بينهما، لأن الأمر انتهى بكليهما ملطخًا بالدماء. لم يبكِ أي منهما. لم يقل أي منهما: «يكفي هذا!» حدث الشجار بسبب فتاة بالطبع. سألتُ: «أية فتاة؟» قالوا لي الاسم. لم أعرفها ولم يتمكن أحد من أن يشير إلى ناحيتها في الفسحة التالية. مدرستنا واسعة جدًّا، جدًّا.

جاء أبوا صديق الولد الذي زاره الرئيس لأخذه، أما الولد الذي زاره الرئيس، فلم يأتِ أحد بحثًا عنه.

ليلًا، أنزل السلالم حافيًا. ليلًا، أصعد السلالم حافيًا. كم مرة فعلت فيها هذا الأمر؟ كم ليلة؟ مع ذلك، أقسم أنني لم أتوقع قط أن يحدث ما حدث.

جلست عند وسط السلم، من دون رغبة كبيرة في مواصلة النزول، وأيضًا من دون رغبة في الصعود. فكرت في الفتاة التي تعجبني؛ تلك التي لم أعد أراها. نظرت نحو صالة الاستقبال المضاءة. نورها الوحيد الذي يظل موجودًا في البيت طوال الليل. يُضيء النور صالة الاستقبال والباب المفضي إلى الشارع. إنه مشهد فارغ. أنا مشاهد فارغ. لم ينتظر أي طرف منا شيئًا من الطرف الآخر. كانت المسألة جيدة هكذا، لكن الأمور لم تبقَ على هذه الحال. في البداية سمعت المفتاح وبعدئذٍ شاهدت المقبض يتحرك. هل تتحرك مقابض الأبواب دائمًا ببطء؟ نزل ذراع المقبض وانفتح الباب. دخل رجل أنفاسه عالية. أغلق الباب وراءه والتفت لإكمال إغلاقه بالمفتاح. نظف قدميه الكبيرتين في ممسحة الأرجل وتنحنح. إنه الرئيس. لم أتحرك. لم أتوقف عن التنفس. لم أتوقف عن الوجود هناك. دخل الرئيس، تقدم عبر صالة الاستقبال، ثم نظر نحو الجانبين، لكنه لم ينظر إلى السلم. تحقق من أن غرفة المعيشة موجودة عند أحد الجانبين، ومن بعدها المطبخ، ثم توجه نحو الباب الموجود في الاتجاه المعاكس: باب غرفته. فتحه، دخل، وأغلق الباب وراءه.

ارتدى ملابس مثل تلك التي نراه بها في التليفزيون. بدلة زرقاء داكنة، مجعدة بصورة أكبر بعض الشيء من تلك التي يظهر بها على الشاشة. من مكاني في الأعلى، رأيته أكثر تحديبًا وبدا أنفه أدكن من بقية وجهه. ظل بين الفينة والأخرى يلمس طرف ذقنه ويمسد شاربه.

بقيت برهة من دون حركة، مترقبًا. بعدئذٍ، استجمعت شجاعتي ونزلت السلم. كان الرئيس قد أضاء نور غرفته. تمكنت من رؤية الإضاءة من تحت عقب الباب. استندت وحاولت أن أنصت. لم أسمع شيئًا. أخذت المفتاح الذي تعلقه أمي في سلسلة المفاتيح. فتحت الباب وخرجت. اجتزت الحديقة وتوجهت نحو الرصيف. توقفت أمام شجرة الغار. ارتجفت وأنا

أصعد واستمر ارتجافي وأنا في الأعلى. تمكنت من رؤية الرئيس عبر نافذة غرفة الرئيس. وقف في وسط الغرفة وهو يحني رأسه، كأنه يتأمل طرف حذائه. بين كل لحظة والأخرى، رفع يده نحو وجهه. أخذ يحك طرف ذقنه، ويمسد شاربه. ضربت الإضاءة في رأسه الرمادي وبدا أنفه ضخمًا بين الظلال. بدا مُضحكًا وبدا مخيفًا. بدا الرئيس حائرًا. شعرت بحاجة ملحة إلى مساعدته، لكن لم يخطر على بالي كيف. ظل هكذا لبرهة، برهة طويلة، ثم استدار، أغلق النور وخرج من الغرفة. رأيته بعدئذٍ بعدة ثوانٍ يخرج من المنزل، يختفي، وهو يسير عبر الشارع مسرعًا. لم يُسمع وسط الليل سوى صوت خطواته فوق الرصيف؛ خطواته ونبضات قلبي، المتزامنة مع إيقاعها.

هل يمتلك الرئيس مفاتيح كل البيوت؟ أم أنهم أبلغوا أبوينا بزيارته فأوصلا له المفتاح بطريقة ما؟ في اليوم التالي، أصبت بالحمى ومكثت طوال النهار في البيت. أُصبت بالحمى، لكنني بالغت قليلًا. وددت أن أراقب أبوينا، ورؤية ما إذا كان شيء ما سيكشفهما. هل علما أن الرئيس كان موجودًا في بيتنا؟ هل هي أول مرة يحدث فيها الأمر. لم أرَ شيئًا يوشي بهما. نظفت أمنا أمسِ غرفة الرئيس، كأن شيئًا لم يحدث.

وماذا عن جيراننا؟ ألم يروا أو يسمعوا شيئًا؟ لكن.. لو سألت عن هذا الأمر فعليَّ أيضًا أن أسأل عن أشياء أخرى. هل أرى جيراني؟ هل أسمعهم؟ هل يمكنني تأكيد أن الرئيس لم يزرهم؟ هل يمكننا، في عائلتنا، أن نضمن أن الرئيس لم يزر بيوتهم؟ جيراننا هناك ونحن هنا، وهذه هي المسألة الوحيدة التي نحتاجها لنعرفها عن بعضنا.

أخي الأكبر موجود في المكتب، مع كتبه. أخي الأصغر موجود في غرفة أخي الأكبر ويتفقد أغراضه. أمي موجودة في المطبخ لتحضير العشاء، أما أبونا ففي غرفة المعيشة ويشاهد التليفزيون. أنا في غرفتي وأكتب. إنها الأمور الوحيدة التي أحتاج إلى معرفتها عنهم. إنه الأمر الوحيد الذي أحتاج إلى معرفته عني.

رغم أنني موجود في العلية، فالأمر الآن كأنني موجود على السلم في وسط الليل، ومشهد صالة الاستقبال الخاوية يأسرني، بالباب المغلق والنور الوحيد المضاء في البيت بأكمله.

قضيت ساعات كثيرة مع الأرق، لكن الرئيس لم يعد. أعرف أنني لم أحلم به. أعرف أن الرئيس كان موجودًا في بيتنا؛ في الغرفة التي بنيناها من أجله. هل ساء أمر ما؟ هل سينظر إليَّ زملائي الآن كما ينظرون إلى الولد الذي زاره الرئيس؟ قبل أمس، أمس، واليوم أوشكت على التحدث معه؛ على أن أحكي له؛ على أن أسأل هذا الولد. لم توقفني إلا احتمالية أن تكون مسألة زيارة الرئيس بيتَه غير صحيحة، فأجد نفسي حينئذٍ أتحول إليه. لا أود أن أصير ما صاره.

هل يمضي الرئيس هكذا؟ وحده في الليل عبر الشوارع؟ أليس لديه حرس شخصيون أو وزراء يرافقونه؟ هل لا يوجد سائقون يوصلونه إلى حيث يود أن يذهب؟

عاد الرئيس اليوم. ارتدى بدلة رمادية وربطة عنق داكنة. دخل بيتنا بالمفتاح وأغلق الباب وراءه. نظف قدميه في ممسحة المدخل، ولمس وجهه تحت ضوء صالة الاستقبال، ثم مسد شاربه الذي لم يتمكن من إخفاء أنفه. الشيء الوحيد الذي لم يفعله هو النظر نحو غرفة المعيشة، إذ دخل غرفته مباشرة. لم يُضئ النور في هذه المرة. بالنسبة إليَّ، فقد خرجت وتسلقت شجرة الغار. تمكنت بعد فترة من النظر بتركيز عبر الظلام إلى النافذة من رؤية ساقيه الممدودتين وواحدة منهما فوق الأخرى وهو على الفراش. لم تظهر بقية جسده. ظهرت ساقاه وقدماه فقط. هل خلع الرئيس حذاءه؟ هل نام؟ تمكنت بصعوبة من احتضان غصن وجررت نفسي لتحسين زاوية الرؤية. بدا الرئيس طيفًا ضخمًا نائمًا فوق الفراش. عقد ذراعيه وراء قفاه. بقيت منتظرًا أن يحدث شيء ما، لكن لم يحدث شيء. في تلك المرة، ظل الرئيس وقتًا أطول بكثير. فجأة، طرأت لي فكرة. نزلت من شجرة الغار ودخلت البيت مجددًا. اقتربت على أطراف أصابعي من باب غرفة الرئيس. أُنصت. وجدت الرئيس يصفر. إنه صفير موسيقي. صفير مكتوم يسعى لمحاكاة إيقاع أغنية بدت لي مجهولة. سمعته كثيرًا، بسكون واهتمام شديدين، إلى درجة أنني في لحظة ما لم أعرف ما إذا كان الرئيس لا يزال يدندن الأغنية أم أن الأغنية باتت موجودة في رأسي. أفزعني هذا الأمر، فرحلت. لم أعرف في أي لحظة رحل الرئيس.

هواء يمر بين الأسنان وشفتان مضمومتان. هكذا هي الصافرة. أفعلها أحيانًا عمدًا، كي أرى رد فعل عائلتي، لكنني في مرات أخرى، أصفر من دون أن أدرك. الأغنية موجودة هناك. أُدرك الأمر فجأة: وأنا في العلية؛ وأنا في المدرسة؛ وأنا في الشارع. أيضًا، وأنا في الحمام أو بينما أرقد محاولًا النوم.

يتحدث أخي الأكبر وأخي الأصغر فيما بينهما. حين أظهر يتوقفان وينظران إليَّ. إنها محادثة هشة. لم تُستأنف مجددًا. ليس الأمر أنهما يُخفيان شيئًا ما عني، وإنما أن أي تغير في محيطهما يتسبب في قطع محادثاتهما. أحيانًا، يحدث أن أتحدث مع أيٍّ منهما ونصمت أنا وهو حين يظهر أخونا الآخر، فننظر إليه. لم أحكِ لأيٍّ منهما أنني رأيت الرئيس في بيتنا مرتين. أو في الواقع، حكيت الأمر للاثنين وأنا بمفردي، في العلية. آنذاك، في خيالي، ظهر أبوانا، فصمت ثلاثتنا ونظرنا إليهما.

ما الذي كان جدي ليقوله لو علم أن الرئيس قد جاء في النهاية إلينا؟ هل سيسعد؟ هل سيخاف؟ لطالما خاف جدي. لطالما بدا كأنه يهرب من شيء ما حتى وهو يجلس صامتًا أمام التليفزيون لمشاهدة برنامجه المفضل بعينيه الواسعتين وحاجبيه المرفوعين. ليس الأمر أنه جبان. لا. ليس هكذا. أظن أن هذا هو ما يحدث للناس الذين يبنون بيوتهم بأنفسهم.

لا يزال البيت كما هو. لم يتغير منذ جاء الرئيس. بمعنًى آخر: يتغير البيت كما يتغير دائمًا، عند حافة إدراكنا. إن لغزه ليس مهمًّا ولافتًا بالصورة الكافية لنشعر بأننا مهددون. إنه بيتنا. البيت الذي شيده أجدادنا. لو أن للبيت قبوًا، لصار الوضع مختلفًا.

في تلك المرة، تعمدت الأمر. دخلت حمام المدرسة، وصفرت - وأنا أتبول - الأغنية التي سمعتها من الرئيس، بل وصفرتها بعدئذٍ وأنا أغسل يديَّ. إن ضم الشفتين معًا والكزَّ على الأسنان يعني الصفير. وجدت عند الحوض الموجود إلى جواري الولد الذي زاره الرئيس. أخذ يُرطب شعره ويصففه أمام المرآة. لم يبدُ أن أغنيتي قد لفتت انتباهه. مع ذلك، شرع

هو الآخر يصفر. إنها أغنية أخرى، بإيقاع آخر، وأسعد نوعًا ما من أغنيتي. هل هي شفرة؟ هل بدأنا حوارًا لم أتدرب عليه؟

لمَّا غادر الولد الذي زاره الرئيس الحمام، بقيت بمفردي، مستغرقًا في أفكاري. لم يعد الولد يبدو لي أكبر مني بكثير. لم أعد أخشى أن أتحدث معه، لكن المشكلة أنني لا أعرف ما الذي يُمكنني أن أقوله له. فكرت في سؤاله عن الشجار الذي خاضه في المرة الماضية، لكن بدا أنه نسي الأمر أصلًا. ينطبق هذا الأمر عليه وعلى أفضل أصدقائه. يسيران معًا طوال الوقت وهما يبتسمان وكل منهما يصب غضبه على الآخر كأن شيئًا لم يحدث. حتى هذه اللحظة، لم أتشاجر مع أحد قط؛ حتى مع أخويَّ، ولهذا لا أعرف ما إذا كان هذا الأمر يحدث أصلًا. حتى أخويَّ، لم أتشاجر معهما. في المرة الثانية، صفرت الأغنية من دون أن أدرك. لم يكن ثمة شخص غيري في الحمام، إذ غادر الولد الذي زاره الرئيس وبقيت بمفردي: أنا الولد الذي زاره الرئيس.

لم أعد أنتظر عودة الرئيس. مع ذلك، عاد. كنت مقتنعًا بأن الأمر سيقتصر على زيارتين، وبأن الرئيس ليس مهتمًّا بغرفتنا -تلك الغرفة الموجودة لدينا من أجله - فهو لم يتفقد الأدراج أو المكتبتين، ولم يستخدم شيئًا مما تركناه له، باستثناء الفراش، بل إنه في زيارته الثانية لم يضئ النور أصلًا. اقتصر ما فعله على الرقود والصفير بصوت مكتوم. إنها مسألة من الممكن أن يفعلها في أي مكان. مع ذلك، عاد، ليلة أمس. عاد الرئيس إلى بيتنا، وفي هذه المرة لم أكن جالسًا على السلم، وإنما في المطبخ وباب البرَّاد مفتوح، وأنا أنظر إلى ما في داخله. لمَّا سمعت صوت مفتاح باب الشارع، أغلقت البرَّاد واختبأت خلف أحد مقاعد غرفة المعيشة. دخل الرئيس. بتُّ الآن في نفس مستواه، بل وتمكنت من رؤيته من الأسفل، لأنني مقرفص. ارتدى بدلة كحلية وربطة عنق حمراء؛ حمراء داكنة. بدت هذه البدلة أجدد من الأخريات، وبالمثل أكبر، كأن الرئيس قد انكمش. لم ينظر الرئيس إلى مكاني، لكنه نظر إلى السلم بتعجب، وهي مسألة لم يفعلها قبلئذٍ. هل انتظر أن أكون موجودًا هناك؟ هل رآني في المرتين السابقتين وتظاهر بالعكس؟ لمس وجهه ومسد شاربه. من مكاني، تحت ضوء صالة الاستقبال، اكتسى أنفه وشاربه بالسواد، كأنهما مستقلان عن بقية وجهه. اكتشفت شيئًا

آخر من هذا المنظور الجديد: بدا الرئيس بأنفه العجائبي الداكن كأنه يتشمم المكان أو يبحث عن رائحة ما. ما هي رائحة بيتنا يا ترى؟ هل هي رائحة الطعام الذي تناولناه ليلًا؟ هل هي رائحتنا نحن، كعائلة؟ وما هي أصلًا هذه الرائحة؟ لحظتئذٍ، لاحت لي فكرة، لكنني تركتها لوقت لاحق. دخل الرئيس غرفته فعلًا، فسارعت بالخروج. مع ذلك، لم أتسلق شجرة الغار في تلك المرة. تحمست، بعد أن شجعني المنظور الجديد، على البقاء في الحديقة والاقتراب من النافذة. وددت أن أرى الغرفة بالكامل وألا أفقد تفاصيل ما قد يفعله الرئيس. أضاء النور قبلئذٍ. وجدته يقف مجددًا في وسط الغرفة. أخذ يلمس وجهه. اكتسى أنفه وشاربه تحت النور بالحمرة، كهذه البقع الحمراء التي يراها المرء حين يُغلق عينيه أو حين ينهض فجأة ويُصيبه الدوار. تنهد الرئيس. تمكنت من أن أسمع، وأنا على الجانب الآخر من النافذة، كيف يُخرِج الهواء من فمه. تنهد مرتين. ثم جاءت التنهيدة الثالثة أعمق، وهو يرفع كتفيه وينزلهما لإطالة الهواء، لكن لم يبدُ أن الأمر يُرضيه. رفع ذراعيه، كأن شخصًا ما صوَّب نحوه سلاحًا وأخذ ثلاثة أنفاس عميقة. سحب أنفاسه بقوة وزفرها ببطء. بدأ لاحقًا، بعد أن شعر بالراحة، يسير في الغرفة. التفَّ حول المكتب، ومر بجوار مقعد الصالون ذي الظهر المتحرك، ثم عاد إلى مكانه السابق، لكن في هذه المرة كان ظهره إلى النافذة. ظل يفكر بضع ثوانٍ. تمكنت من استشعار إيقاع التنفس في كتفيه الساقطتين. اقترب من المكتبتين. مال برأسه ونظر إلى كعوب الكتب. بعدئذٍ، قرب أنفه الضخم المُبطبط[1] منها وتشممها. ابتعد. ذهب نحو الفراش القابل للطي وجلس عند نهايته. أسند كوعيه إلى ركبتيه ووجهه إلى راحتَي يديه المفتوحتين. تنهد مجددًا. جسده ضخم. وجهه كذلك، أما عيناه فصغيرتان. انحنى جسده نحو الأمام ونظرته تحدق إلى نقطة بين المكتب والمكتبتين. هل كان ينظر إلى المشجب؟ هل هذا ما نظر إليه؟ ظل هكذا وقتًا طويلًا. بدا كأنه يمضغ علكة أو ورقة صغيرة. فجأة، أخذه شيء ما على حين غرة. انتصب، أرهف سمعه، ونظر إلى ما حوله. نهض واقفًا وخرج من غرفته ثم من المنزل على الفور. تمكنت بصعوبة من الاختباء خلف شجرة الياسمين. شاهدته يبتعد. سمعت خطواته المتسرعة. للحظة ما، حين رأيته يثب من الرصيف إلى الشارع ليعبره، شككت في أن الرئيس ليس عجوزًا جدًّا كما يودوننا

أن نظن. بعدئذٍ، اختفى بسرعة. لم يَطل الوقت الذي استغرقه صوت خطواته وسط الليل. بالنسبة إلى غرفة الرئيس، فقط ظل نورها مضاء.

يشق عليَّ تصديق أن أحدًا في البيت لم يعلم بعد بزيارات الرئيس. بدأت أفكر في أن سلوك عائلتي صحيح. لا بد أن يبدو الأمر كأن الرئيس لم يأتِ قط، لكنني حين أفكر هكذا، أشك: هل جاء في وقت سابق قبل أن أعرف الأمر؟ لا. لم يأتِ سابقًا وعائلتي لا تعرف شيئًا عن زياراته. إنهم غير قادرين على إخفاء الأمور بهذه الصورة الجيدة جدًّا. مع ذلك، أنا أُخفي الأمور جيدًا. أنا قادر على هذا الأمر.

لكن السؤال إذن: من الذي أطفأ نور غرفة الرئيس؟ لم أتجرأ على الإقدام على الأمر، ومع ذلك وجدته مطفأً في اليوم التالي.

ليس صحيحًا أنها مسألة يُمكن فعلها في أي مكان. لا يُمكن للمرء أن يُصفر في أي مكان؛ أو أنه أمر ممكن، لكن الأشياء تتغير سريعًا. الأشياء وليس الناس، وإن كان الأمر قد ينطبق على الناس أحيانًا. بينما أصفر اللحن الذي سمعته من الرئيس، وأنا في طريقي إلى المدرسة، يمكنني أن أرى كيف تقبل الأشياء التي أراها كل يوم -نفس النواصي، البيوت، السيارات المصفوفة، الأشجار- أن هذا أيضًا صوتي. إنها تتقبلني، وهي مسألة مزعجة وممتعة في نفس الوقت. لم أعد متحمسًا لتصفير اللحن في أي مكان، مع أن اللحن قد استقر في رأسي.

تتعلق الفكرة التي لاحت لي وأنا وراء مقعد الصالون، والرئيس يتشمم هواء صالة الاستقبال والبيت بما يلي: بكيس صغير من زهور الخُزامى المجففة كذلك الذي تضعه أمنا أسفل وسادتها لتنام بشكل أفضل. إن هذا هو ما أود إضافته إلى غرفة الرئيس. سأطرح المسألة على أبوينا غدًا أثناء الإفطار.

اعتادت جدتي اللجوء إلى مسألة كيس زهور الخُزامى الصغير. هي من قالت إنه يساعد على النوم بشكل أفضل. اقتصر ما فعلته أمنا على تكرار مقولتها. لم أتعرف إلى جدتي.

ينطبق نفس الأمر على أخي الأكبر، بل إن أبانا نفسه لم يتعرف إليها. حينما جاؤوا إلى البيت، لم يكن موجودًا سوى الجد والحمى وصرخاته. لم تكن الجدة آنذاك إلا فكرة مجردة: مجرد كيس صغير من زهور الخزامى للنوم بشكل أفضل. هذا هو مستقر الجدة الوحيد: هذه العبارة التي تكررها أمنا. ذات مرة فكرت في سؤالها عما تود قوله بـ«النوم بشكل أفضل»، لكنها مسألة لم أقدم عليها قط. خشيت من أن ذلك الوجود النادر الذي يُشكل كينونة جدتنا قد يتلاشى وسط الإجابة، لو أقدمت على سؤالها. إذن، الجدة موجودة هناك، في هذه الجملة، ويُمكن للمرء أن يتخيلها كأفضل شخص ينام في العائلة.

نجلس جميعًا إلى مائدة الإفطار. لا يتحدث أحد وكل ما يُسمع هو ضوضاء الفناجين وأدوات المائدة. أيضًا، صوت الراديو في غرفة المعيشة. لقد شغلت أمنا الراديو ككل صباح لمعرفة درجة الحرارة. الجو بات باردًا فعلًا. سيبرد الجو سريعًا. ها نحن أولاء جميعًا موجودون. أنظر إليهم واحدًا تلو الآخر. أرغب في أن أقول لهم الأمر. أرغب في أن أتشارك معهم فكرتي. أوشك أبي -وهو أول من يرحل دائمًا، على الانتهاء من تناول إفطاره- ولهذا يجب عليَّ أن أسرع. يجب أن أقول الأمر، لكن يرحل أبي، من دون أن أقول شيئًا. ينتهي الإفطار ونبدأ في الرحيل. ليس أحد أشكال الخوف ما أوقفني. إنه نوع من العزة.

تشتت انتباهي طوال الصباح وأنا في المدرسة، لكن كفاني وصولي إلى البيت كي أدرك أنني قد اتخذت قرارًا: سأضع كيسًا صغيرًا من زهور الخزامى الجافة في غرفة الرئيس من دون أن أخبر أحدًا. أخرجت في القيلولة بعض الزهور التي تضعها أمي لتجف إلى جوار النافذة ووضعتها داخل جورب. احتفظت بها في غرفتي وانتظرت الليل. لمَّا نام الكل، نزلت حافيًا وفتحت، من دون أن تساورني أية شكوك، باب غرفة الرئيس. دخلتها. لم أُضئ النور. بقيت واقفًا وسط الظلام، وأنا أتأمل الظلال. المكتب، المشجب، المكتبتين، الفراش القابل للطي، الطاولة الصغيرة، زجاجة الويسكي الموجودة فوقها، والكوب. على الجانب الآخر من النافذة، ظهر الظل الأسود لشجرة الغار. وراءها، ضوء الشارع. إنها أول مرة أدخل فيها إلى هذه الغرفة بمفردي، من دون أن يعلم أحد. لم يشغلني الأمر من قبل. ما الذي أفعله هنا؟ منذ متى وأنا أشغل بالي بـالرئيس هكذا؟ لكن الرئيس ليس موجودًا هنا. وضعت الجورب

مع زهور الخزامى الجافة أسفل الوسادة وتراجعت على الفور نحو الباب، لكنني لم أرحل. بقيت واقفًا وسط الظلام، والباب المغلق إلى ظهري. أحصيت ببطء كل الأغراض التي أعرف أنها موجودة في الغرفة؛ تلك التي تمكنت من رؤيتها من بين الظلال وتلك الأخرى التي لم ألمحها والموجودة في أبعد الأركان أو في الأدراج. تركت مساحة أثناء العد للأغراض التي لم أعرفها. فكرت في أبينا، وهو هنا، وتحوله إلى غريب. فكرت بعدئذٍ في الرئيس وهو يدندن ويصفر لحنه في وسط الظلام. بدا لي الفراش القابل للطي وسط الظلال المشعشة صغيرًا جدًّا على جسد الرئيس بسبب طوله. مع ذلك، كان يتسع له. تشممت الهواء وبحثت. استشعرت رائحة الخُزامى لكن شقت عليَّ معرفة ما إذا كانت هذه الرائحة تأتي من الجورب المخفي أم من يديَّ اللتين لمستا الزهور. في النهاية، غادرت.

يُمكنني التفكير بوضوح وأنا في العلية؛ فقط في العلية وأنا في أبعد جزء في البيت عن غرفة الرئيس. مرَّ أسبوع منذ وضعت الجورب وداخله زهور الخزامى الجافة. لم يعد الرئيس. يُمكنني فقط وأنا في العلية التفكير بوضوح في هذا؛ في كل هذا. وأنا خارج البيت، لا أفكر إلا في العودة، لكن الطريقة الوحيدة للتوقف عن التفكير في العودة هي تصفير اللحن الذي سمعته من الرئيس. يغدو كل شيء مربكًا وأنا في البيت، بما فيه الحمام، بل الحمامان الموجودان في الأعلى، رغم أنهما كانا في وقت سابق يُرتبان كل شيء. كانا البداية. لم يعودا كذلك الآن. يبدو الأمر كأن في بيتنا قبوًا، مع أنني أعرف أنه ليس فيه. بدأ أخواي يُدركان أن شيئًا ما يحدث لي لأنني فجأة بت أتحدث معهما كثيرًا. يتحمس أخي الأصغر أحيانًا وفي مرات أخرى يتشكك، أما أخي الأكبر فينظر إليَّ دائمًا كأن قانونًا فيزيائيًّا يحدث أمام جبيني.

لكن، إذن: هل يحدث لي شيء حقًّا؟

منديلان من القماش، مقصان عاديان، مقص آخر للأظافر، عدة رزم من أوراق اللعب، ظروف بأحجام مختلفة، روابط مطاطية، دبابيس مشبكية، نصل لفتح سدادات الزجاجات، دفاتر، أجندات لم يُكتب فيها شيء، أقلام حبر، أقلام رصاص، أقلام متعددة الألوان، برَّاية،

أعواد ثقاب، سجائر، راديو يعمل بالبطاريات، بطاريات احتياطية لهذه البطاريات، فنجان كبير، آخر صغير للقهوة، ظروف سكر، مشط، مجلة كلمات متقاطعة، علبة أكياس شاي، سخان كهربائي، صفيحة مياه معدنية، بعض عبوات البسكويت المسكر والمملح، بعض المعلبات (البازلاء، العدس، التونة)، كتب عن العلوم والأحياء والهندسة، تماثيل الأفيال، العدسة المكبرة، منشفة صغيرة، أخرى كبيرة، صابونة، غسول شعر، طست، ملح خشن، صندوق أحذية مليء بالأدوية والضمادات، قناع حريري للنوم، سدادات أذن، ساعات، الكثير من الساعات، بعضها يعمل والبعض الآخر لا، مسدس الساقية، الطلقات الست، وجورب زهور الخزامى. كم من الوقت قد ينجو الرئيس في الغرفة التي جهزناها له؟

إن معرفة كل الأغراض الموجودة في غرفة الرئيس أمر مستحيل. الآن، لديَّ شك. تمضي الأيام فأفقد الأمل في أن يعود الرئيس وأشك: لست الوحيد الذي دخل الغرفة وترك فيها شيئًا من دون أن يقول للبقية: لقد خدعنا بعضنا. نحن نخدع بعضنا. هل لمحت أمي وهي تنظف الغرفة جورب أزهار الخزامى الجافة؟ هل تركتها أم أنها أخرجتها؟ عليَّ أن أدخل غرفة الرئيس لأبحث في الأمر، لكنني لا أجد اللحظة المناسبة. أعجز عن استجماع شجاعتي. كيف جرى ما فعلته؟ كيف تجرأت على دخول غرفة الرئيس؟ لكن، على وجه الخصوص، كيف تجرأت على تغيير نظام الغرفة؟

أحصي الأغراض وقطع الأثاث في كل مرة، كأنني سأخرجها من الغرفة. أتخيل نفسي وأنا أخرج كل شيء إلى الحديقة. أتخيل قطع الأثاث والأغراض وهي تحت ضوء شمس المساء، أسفل شجرة الغار الوارفة. ثمة نور وظلال في نفس الوقت فوق قطع الأثاث، وفوق الأغراض. هل الموسيقى، تلك الموسيقى التي لا أعرف من أين تأتي، موجودة في الهواء؟ أحصي كل الأغراض بصبر، لكنني لا أحصي الغرفة أبدًا. أن تخلو الغرفة فجأة شيء لم يعد بإمكاني التفكير فيه.

جاءت زيارة الرئيس الرابعة في ليلة باردة جدًّا. فتح الرئيس باب الشارع بمفتاحه ودخل. في هذه المرة، ارتدى معطفًا فوق البدلة. إنه معطف لا تشوبه شائبة وجديد لم أرَ مثيلًا

لسواده قط. بدا الرئيس تحت إضاءة صالة الاستقبال وهو في هذا المعطف أنحف بكثير، بكتفين مرفوعتين وعاليتين. تشمم الهواء بأنفه الضخم، وطقطق بلسانه راضيًا عن حرارة البيت الدافئة، ثم دخل غرفته. خرجت من وراء مقعد الصالون الذي اختبأت وراءه واقتربت من الباب الذي أغلقه. أسندت أذني وحاولت أن أنصت. ظل الرئيس يدندن مرة أخرى. إنها الأغنية ذاتها، ومع ذلك بدت مختلفة. نور الغرفة مضاء. رغم البرد، خرجت إلى الحديقة واحتميت بشجرة الياسمين، تحت النافذة. أطللت برأسي. جلس الرئيس قبلئذٍ إلى مقعد الصالون ذي الظهر المتحرك وصب لنفسه كوبًا من الويسكي. ظل يدندن بصفيره المكتوم ولم يخلع معطفه. بدا مسترخيًا، كأنه قد اعتاد على الغرفة. لكن لو أن هذا الأمر صحيح، لخلع معطفه. استمر في التصفير وبين الحين والآخر احتسى رشفة من الويسكي. كان في مواجهة النافذة بعينين مغمضتين. ظل وقتًا كثيرًا هكذا. يُمكن تحمل البرد، لا الانزعاج الذي تنامى مع مرور الدقائق دقيقة تلو الأخرى. تناول الرئيس رشفة من الويسكي؛ رشفة صغيرة جدًا، وقام بإيماءة انبرم فيها شاربه نحو الأعلى، وتجعد فيها جبينه، ليتمدد أنفه كأنه سيحتل وجهه بالكامل. لا بد أن مرد انزعاجه يرتبط بهذا الأمر: لقد فكرت في أن الرئيس لا يروقه الويسكي وأنه رغم ذلك شعر بأنه ملزم بتناوله. لم يشرب كوبًا واحدًا فقط، بل صب لنفسه آخر. تناول الكوب الثاني بعينين مفتوحتين. لم يعد يصفر. أخذ ينظر عبر النافذة إلى رأس شجرة الغار وسماء الليل. وجهه كبير. أنفه كبير. ظلت عيناه صغيرتين، إلى أن توقفتا عن كونهما على هذه الشاكلة. أخذت عيناه تتضخمان وارتفع حاجباه. اتسعت عيناه. حينئذٍ، نهض الرئيس واقفًا واقترب من النافذة. تراجعت، تعثرت، ووقعت فوق العشب البارد كالثلج. رأيته وهو ينظر إلى شجرة الغار، والسماء السوداء، ثم فجأة توجهت عيناه نحوي؛ نحو العشب الذي يُضيئه نور القمر. مرت ثوانٍ عديدة. مرت ثوانٍ أكثر وقضيناها هكذا وهو يحدق إليّ وأنا أحدق إليه، إلى أن استدار في النهاية وترك الكوب الخاوي إلى جوار الزجاجة وابتعد عن النافذة. بعدئذٍ ببرهة انطفأ نور غرفة الرئيس. سمعت الباب يُفتح ويُغلق، ثم انفتح باب الشارع وظهر الرئيس. أجل. إنه طويل وظهره محدب. سبق وقلت هذه المسألة سابقًا، لكن يبدو الأمر كأنني أدركتها حالًا. ملأ الرئيس رئتيه بهواء الليل البارد واحمرَّ أنفه وسط الظلال. بعدئذٍ، نفث الهواء ببطء.

اجتاز درب الحديقة، وصل إلى الرصيف، مر أسفل شجرة الغار، واجتاز الشارع. في تلك اللحظة فقط، نهضت واقفًا. كان طويلًا وظهره مُحدبًا، وكلما ابتعد بدا أطول وأكثر تحدبًا، رغم معطفه الأسود الجديد. لم ينظر الرئيس إليَّ في أي لحظة. بدا الأمر كأنه لم يرني قبلئذٍ قط، رغم أنه قد رآني فعلًا. لقد نظر إليَّ بهاتين العينين الواسعتين البطيئتين وهذه النظرة الحزينة والخبيثة. ظللت واقفًا لبرهة في وسط الحديقة وأنا أرتجف من البرد.
عجزت عن اتخاذ قراري: نظرة الرئيس.. هل هي نظرة رجل طيب أم رجل شرير؟ هذان هما الخياران الوحيدان المتاحان. هذان هما الخياران الوحيدان الموجودان في الأعين وفي نظرة الرئيس.

دخلت البيت. دخلت غرفة الرئيس. رفعت وسادة الفراش وتحققت من أن جورب زهور الخزامى الجافة لا يزال هناك. رقدت بملابسي والتحفت بأغطية الفراش. لمَّا بَعُد البرد عني، غفوت. نمت حتى الشروق. أيقظتني دندنة موسيقية. ظننت أن الرئيس قد عاد، لكنه كان أنا. تراءى ضوء الصباح الأول من النافذة. فكرت في إغلاق الستائر، لكنني لم أتمكن من النهوض. بعدئذٍ، سمعت صوت الضوضاء الأولى في البيت. لقد استيقظت أمنا. هكذا جرى الأمر. هكذا، بكل بساطة: سمعت الضوضاء القادمة من الطابق العلوي؛ أبونا وهو يجرجر شبشبه، استحمام أخي الأصغر فوق رأسي، ضوضاء الدُّش، وبعض السعال. نزلوا جميعًا واحدًا تلو الآخر على السلم وتعرفت عليهم كلهم عبر خطواتهم. لا بُد أنهم يُحضرون الإفطار بالفعل. لا بُد أن أخي الأصغر لم يقل شيئًا بعدُ عن غيابي، لأن هذه هي نوعية الأمور التي يروقه إخفاؤها. أنا المفقود الآن، لكنني لن أظل هكذا وقتًا طويلًا. سيعثرون عليَّ بسهولة. أنا في غرفة الرئيس، وسأظل في مكاني هنا.

وهكذا بقيت هنا؛ هناك.

أقترب أحيانًا والنور مطفأ -وفي مرات أخرى وهو مضاء- من النافذة في أوقات الفجر وأترك عينيَّ تتضخمان وتتباطآن. أنظر إلى شجرة الغار، السماء السوداء والشارع الخاوي. ليس الأمر أنني أنتظر الرئيس؛ أو على الأقل أن هذا الأمر لا يحدث دائمًا. مع مرور الوقت

بدأت في الاعتياد وتراجع تفكيري فيه، بنفس الصورة التي تراجع بها تفكير عائلتي فيَّ. إنهم يقبلونني وأنا أقبلهم. جميعنا نقبل. لا تزال أمي تنظف الغرفة مرة واحدة أسبوعيًّا. أحيانًا تتظاهر بأنني موجود، وفي مرات أخرى لا. أنا الآن جزء من غرفة الرئيس. ما الذي سيحدث حين يأتي؟ لا أعرف. لا أعرف أصلًا ما إذا كان سيأتي مرة أخرى، رغم أنني لا أظن فعلًا أنه سيفعلها. مع ذلك، لا يشغلني هذا الأمر. إنها مسألة لا تخصني. عليَّ فقط أن أستعد؛ أن أجهز قوائم وأرسم علاقات بين الأغراض الموجودة في الغرفة. ألعب بالأوراق، أكتب، وأقرأ كتب العلوم التي تركها أبونا. أدرب نفسي وأتخيل موضوعات للمحادثة. الأمر ليس سهلًا دائمًا، إذ إنني أحيانًا أسأل نفسي عن أمور معينة: هل سأظل أعجب الفتاة التي تعجبني؟ هل أدركتُ أنني لم أعد أذهب إلى المدرسة؟ أحيانًا لا أسأل نفسي أي شيء، ومع ذلك تساورني الشكوك. في تلك الأحيان، أخرج إلى الحديقة وأتجسس على الغرفة مجددًا عبر النافذة أو من فوق شجرة الغار. في هذه الأيام، حين أخرج من الحمام الواقع تحت السلم وأمرُّ بجواره، أتخيل نفسي أعود إلى غرفتي، إلى غرفتنا التي باتت الآن غرفة أخي الأصغر وحده، وأتنهد. أتنهد بقوة وأتشمم رائحة البيت. لكن هذا الأمر يحدث في بعض الأحيان فقط. إنها تجارب لا تترك أثرًا فيَّ. أنا سعيد في أغلب الوقت. أنا سعيد ومنشغل بينما تتضخم عيناي وتتباطآن. فقط بين الفينة والأخرى، وأنا مستلقٍ فوق الفراش القابل للطي في أوقات القيلولة المضيئة، أفتقد العلية ببؤس. يحدث هذا الأمر لي فقط لأننا معشر البشر علينا دائمًا أن نفتقد شيئًا ما.

عن المؤلف

وُلد في مدينة بارانا الأرجنتينية، في مقاطعة إنتريريوس، في عام ١٩٧٦. حصل على ليسانس الآداب الحديثة من جامعة كوردوبا الوطنية ويعيش منذ ٢٠٠٢ في العاصمة الأرجنتينية بوينوس آيرس. عمل مديرًا لمجلة «أوليبيرا» الأدبية بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٦. من رواياته: «لا مكان» و«متلازمة راسبوتين» و«كلاب المطر». تُرجمت أعماله إلى البرتغالية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية.

(1) ابتكر المؤلف في النص الإسباني كلمة غير موجودة في الإسبانية منسوبة إلى البطاطا قالها الراوي بلغته الطفولية وهو نفس ما انتهجته في الترجمة إلى العربية. (المترجم)

1. الغلاف
2. رواية
3. غرفة الرئيس
4. غرفة الرئيس